

الفصل الثالث

الصحة الإسلامية:

مظاهرها ، أسبابها ، محدودية فاعليتها

الصحة الإسلامية

لم تستطع ايدولوجيا القومية العربية أن تفرض التغريب على الأمة، بل جاءت الصحة الإسلامية في بداية السبعينات معبرة عن فشل التغريب، والعودة إلى التدين، ونجاح الأمة في المحافظة على ذاتها وشخصيتها وعبرت عن ذلك بعدة مظاهر، هي:

١- إعمار المساجد :

لقد كثر مرثادو المساجد، وبخاصة من الشباب، وزاد الإقبال على بناء المساجد في الدول الإسلامية وفي أوروبا وأمريكا.

٢- زيادة الإقبال على الحجاب :

زاد إقبال النساء المسلمات على ارتداء الحجاب الشرعي في مختلف الأوساط: الشركات، والجامعات، والمدارس الثانوية، والدوائر الحكومية إلخ...

٣- الفوز في الانتخابات المهنية والعمالية والاتحادات الطلابية والبرلمانية :

فاز الإسلاميون في كثير من الانتخابات، وسيطروا على كثير من النقابات المهنية كنقابة المهندسين، والأطباء، والمحامين إلخ... وتمكنوا من قيادة كثير من الاتحادات الطلابية في كثير من الجامعات من المغرب إلى مصر إلى تركيا إلى باكستان إلخ...، وخاضوا بعض الانتخابات البرلمانية وفازوا في بعضها كما وقع ذلك في اليمن والأردن ومصر والمغرب إلخ...

٤- رواج الكتاب الإسلامي :

ثبت أن الكتاب الإسلامي أكثر الكتب رواجاً وذلك من خلال إحصائيات قامت بها بعض المؤسسات في معارض الكتب المختلفة.

٥- قيادة العمل الخيري في البلدان العربية وآسيا وأفريقيا :

نشأت مؤسسات خيرية في معظم البلدان العربية والإسلامية وبخاصة في الخليج والسعودية، وقامت بإنشاء فروع

لها في معظم بلدان أفريقيا وآسيا، وساهمت هذه المؤسسات الخيرية في دفع غائلة الفقر والحرمان عن هذه الشعوب، فأقامت المشاريع الزراعية، وحفرت الآبار، وأسست بعض المشاريع الصناعية لإعالة بعض العائلات، وبنيت المستشفيات والمستوصفات، وأسست بعض المدارس والجامعات للمساهمة في العملية التعليمية في تلك البلدان، كما أنشأت بعض الأوقاف التي تساهم في تغذية المشاريع السابقة.

٦- الحضور الإعلامي الواسع :

زادت مساحة البرامج الدينية في الإذاعات والتلفازات مما زاد في الحضور الإعلامي للشخصيات الإسلامية، ومما زاد في حجم القضايا الدينية والتاريخية المطروحة، كما زادت عدد المجالات الإسلامية التي تتناول مختلف الموضوعات الإسلامية.

٧- النجاح في إنشاء مؤسسات لا ربوية :

نجح الإسلاميون في إنشاء بنوك لا ربوية، وشركات لا ربوية، وقد استقطبت هذه البنوك والشركات قسماً كبيراً من الجماهير المسلمة التي سعت وراء التنمية الحلال، والربح الحلال،

وقد ضاربت هذه المؤسسات اللاربوية البنوك الربوية وأثرت عليها، مما جعل الأخيرة تضغط على الحكومات من أجل عرقلة حركتها، وقد نجحت إلى درجة كبيرة في تحقيق هدفها لدى بعض الحكومات العربية والإسلامية.

٨- ازدياد المطالبة بتحكيم الإسلام في كل شؤون الحياة:

ازداد عدد المطالبين بتحكيم الإسلام في كل شؤون الحياة نتيجة الوعي بأن الإسلام دين ودولة، وأنه لا يكتمل الدين إلا بتحكيمه في كل شؤون الحياة، وأن انفصال الدين عن الدولة في الغرب جاء نتيجة ظروف تاريخية خاصة به أبرزها الخصومة بين الدين والعلم التي لم يعرفها الدين الإسلامي، بل كان الدين والعلم توأمين يعيشان جنباً إلى جنب في تاريخنا، وانبثقت كل العلوم الدنيوية في رحاب المسجد ومن الشريعة الدينية، كما اشتغل علماء الدين بعلوم الدنيا مستهدين بأوامر الدين الإسلامي، ومستفيدين من مظلته.

٩- العودة إلى الأصول :

تميزت الصحة الإسلامية بأنها وضعت المسلم عبر سكة صحيحة فيما يتعلق بعدة أمور شرعية أبرزها: البعد عن التصوف، والبعد عن التعصب المذهبي، والبعد عن الأحاديث الضعيفة، وجعلته بالتالي يتمسك بالعتيدة الصحيحة، وبالحرص على السنة، والأخذ بالأحاديث الصحيحة، وقد جاء هذا التوجه حصيلة جهود عشرات العلماء في القرون السابقة من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومحمد رشيد رضا، والشيخ ناصر الدين الألباني إلخ....، لذلك نجد أنه راجت الكتابات والدراسات التي تصحح العقائد، وتصحح السنة، وتصحح الأحاديث.

١٠- مساهمة الإسلاميين في الجهاد:

غاب الإسلاميون عن الساحة الجهادية في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي وبخاصة ساحة الجهاد الفلسطيني لعدة ظروف لا مجال للحديث عنها أو شرحها الآن، لكنهم عادوا إلى الظهور في عدة ساحات منها: ساحة الجهاد في

الفصل الثالث

أفغانستان، وفي الفلبين، وفي أرتيريا، وفي فلسطين...، وأصبح لهم دور بارز في الثمانينات والتسعينيات من القرن الماضي في الجهاد في قضية فلسطين، وهذا الدور أحد إفرازات الصحوة الإسلامية.



بعد أن عرفنا مظاهر الصحوة الإسلامية، فما أسبابها؟ وما العوامل التي أدت إلى قيامها؟

أسباب قيام الصحوة الإسلامية

لم تقتصر الصحوة على بلد واحد أو منطقة واحدة، بل شملت بلداناً متعددة ذات ظروف تاريخية مختلفة تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، منها: تركيا، الأردن، مصر، فلسطين، تونس، الجزائر، السعودية، الكويت إلخ... وقد قامت في تواريخ متعددة، والأرجح أن تركيا كانت أسبق من غيرها في الصحوة كما كانت أسبق من غيرها في التغريب، ونحن سنجمع الأسباب التي ذكرها الدارسون كتعليل لهذه الظاهرة، وسنتبين رأينا في صوابية كل منها.

١- نكسة حزيران ١٩٦٧م:

ذكر بعض الدارسين أن الصحوة الإسلامية جاءت نتيجة هزيمة العرب في مواجهة اليهود سنة ١٩٦٧م، وعللوا ذلك بأن الشعوب تلجأ إلى القيم الغيبية لمواجهة الانتكاسات وللتهرب من الواقع المرير، ومن الذي روجوا لهذا التحليل حسين أحمد أمين في عدد من مقالاته. لكن هذا التعليل غير صحيح لأن هناك بلاداً

قد ظهرت فيها صحوة إسلامية ولا علاقة لها نهائياً بالنكسة مثل تركيا وتونس، ولكننا يمكن أن نقبل القول بأن نكسة حزيران ١٩٦٧م كان لها دور في توقيت ظهور الصحوة وذلك لاضطرار الحكام إلى تخفيف قبضتهم عن الشعوب الإسلامية بسبب هزيمتهم أمام اليهود، واضطرارهم إلى السماح بهامش من الحرية مما جعل الشعوب تستفيد من هذا الهامش وتعبر عن الحقيقة الكامنة في داخلها ووجدانها.

٢- حاجة بعض الحكام لمواجهة التيارات اليسارية:

علل بعض الدارسين اليساريين وجود الصحوة الإسلامية بأنها ثمرة إطلاق الحكام ليد الإسلاميين في العمل السياسي من أجل مواجهة الحركات اليسارية، وأشاروا بهذا الصدد إلى إطلاق أنور السادات يد الحركة الطلابية في مصر لمواجهة الشيوعيين واليساريين من أتباع جمال عبد الناصر في الجامعات المصرية بعد عام ١٩٧٠م، وأشاروا كذلك إلى سماح بورقيبة للإسلاميين بالعمل في تونس من أجل الحد من نفوذ التيار الشيوعي هناك.

إنّ هذا الكلام الذي يقوله اليساريون قابل للنقاش، ولا يسلم به على إطلاقه، ولكن لنفترض جدلاً صحة ما يقوله اليساريون، فهذا يعني أنّ الحكام أرادوا الاستفادة من ظاهرة موجودة، ولم يُوجدوا هذه الظاهرة، وهذا ما نريد أن نصل إليه وهو أنّ الصحة الإسلامية حقيقة منبثقة عن واقع حياة المجتمع المسلم ومرتبطة به، وذات جذور وأصول بعيدة وليست من صنع الحكام.

٣- الظروف الاقتصادية السيئة:

أشار كثير من الدارسين وبالذات الغربيين إلى أنّ الصحة الإسلامية ثمرة الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها بعض بلدان العالم الإسلامي، وأنّ القيادات الإسلامية تستغل الظروف الاقتصادية السيئة للزج بالشباب في "أتون الأصولية"، ومما ينفي زعم أولئك الدارسين أنّ الصحة الإسلامية لم يقتصر انتشارها على البلدان التي تعاني أزمات اقتصادية، بل امتد انتشارها إلى البلدان المستقرة والمزدهرة اقتصادياً مثل الخليج العربي بعامة والكويت بخاصة، وربما كان العامل الاقتصادي سبباً في تسريع

انتشارها لكنه لم يكن عاملاً أساسياً في إيجادها بحال من الأحوال.

٤- الثورة الإيرانية:

عزا بعض الدارسين انبثاق الصحوة الإسلامية إلى قيام الثورة الإيرانية في طهران عام ١٩٧٩م، وإلى تأثيرها الإعلامي في محيطها الإسلامي، لكن نسي أولئك الدارسون أن الثورة الإيرانية شيعية المذهب، لذلك فمن الصعب أن يكون لها تأثير في محيط سني المذهب وبخاصة إذا علمنا أن الصحوة الإسلامية قامت في بلاد سنية المذهب، وإذا كان لابد لنا من الإقرار بالتأثير والتأثير فهو أن الثورة الإيرانية حركت مشاعر المسلمين، وأذكت أملهم بإمكانية الانتصار، ودفعتهم إلى حلبة التنافس والتسابق مع إخوانهم الآخرين.

٥- انتشار المد الأصولي:

رصد بعض الدارسين أصولية متنامية خلال الفترة الماضية على مستوى الكون لدى جميع الأديان اليهودية والكاثوليكية والهندوسية والبوذية إلخ... وعللوا تلك الظاهرة الأصولية بسقوط

الاتحاد السوفيتي الذي يقوم على الإلحاد والذي هو خصم لكل الأديان، واعتبروا الصحة الإسلامية جزءاً من تلك الظاهرة، لكن نسي الدارسون أنّ الصحة الإسلامية غير الأصولية الإسلامية، فلكل ظاهرة سماتها المستقلة المختلفة عن الأخرى، وإذا قبلنا التعليل السابق لظهور الأصولية الإسلامية فيجب أن نبحث عن تعليل آخر لظهور الصحة الإسلامية طالما أنّهما في حقيقة الأمر ظاهرتان متميزتان مختلفتان.

٦- ارتباط الصحة بعالم واحد أو حزب معين:

ربط بعض الدارسين الصحة الإسلامية بعالم واحد، أو بحزب معين، أو جماعة محددة، لكن هذا الربط بعيد عن الصواب بسبب أن الصحة الإسلامية شملت معظم أنحاء العالم الإسلامي، وفي فترات محددة من منتصف القرن الماضي إلى نهايته، ولم يعرف العالم الإسلامي عالماً واحداً شمل نفوذه وأفكاره جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولم يعرف العالم الإسلامي حزباً معيناً شمل انتشاره العالم الإسلامي جميعه بسبب الحواجز الكثيفة التي فرضها الاستعمار بين أقطار العالم الإسلامي، فالحقيقة أن الصحة

جاءت ثمرة تفاعل بين الوحدة الثقافية المغروسة في كيان الأمة وبين جهود علماء مختلفين وجماعات وأحزاب متنوعة على امتداد العالم الإسلامي، ففي تركيا فشل التغريب الذي غرسه أتاتورك عندما أعادت الدولة الأذان باللغة العربية في خمسينات القرن الماضي، وعندما سمح للمدارس الدينية بأن تمارس نشاطها، وسمح للمرأة بأن تلبس حجابها إلخ... وفي الجزائر فازت جبهة الإنقاذ في انتخابات عام ١٩٩١-١٩٩٢م بكل مقاعد البرلمان تقريباً مع أن تشكيلها تم قبل سنتين من تاريخ الانتخابات، ومع أن زعيمها الرئيس عباسي مدني لم يكن معروفاً من قبل إلا في نطاق محدود، ويؤكد المثلان في تركيا والجزائر بأن الصحوة الإسلامية لا يقف وراءها عالم واحد أو حزب واحد، بل عدد من العلماء والجماعات والأحزاب، وقس على ذلك بقية البلاد العربية والإسلامية.

والآن بعد أن فندنا الأسباب التي توهم بعض الدارسين أنها كانت وراء الصحوة الإسلامية، فما أسبابها الحقيقية إذن؟ وما ماهيتها؟ لكي نرد على السؤال السابق لا بد من استعراض

الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية والفكرية التي سبقت
الصحة الإسلامية.

كانت الحضارة الغربية هو التحدي الأكبر الذي واجه
الخلافة العثمانية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،
وانتهى الصراع بسقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية
الأولى، وبتفكيك ولاياتها وسقوط معظمها في قبضة الانتدابين:
البريطاني والفرنسي، وارتفعت أصوات تنادي بالتغريب من أجل
التخلص من التحلف الحضاري ومن أجل الحقوق بالحضارة
الغربية، وكان كمال أتاتورك أبرز من حمل لواء التغريب فألغى
الخلافة وأعلن النظام العلماني الذي يقتضي فصل الدين عن
الدولة نهائياً، وألغى الشريعة الإسلامية، وأعلن الأذان باللغة
التركية، وكتب اللغة التركية بالحرف اللاتيني بعد أن كانت
تكتب بالحرف العربي، وأوجب السفور وألغى كل التشريعات
الإسلامية المتعلقة بالأسرة إلخ...

ذلك ما قام به كمال أتاتورك على الجانب التركي من
الخلافة العثمانية، أما الجانب العربي فقد قادت ايديولوجيا القومية

العربية الأمة فيه، واعتبرت اللغة والتاريخ عاملي تكوين الأمة العربية، وتكررت للدين الإسلامي ولم تعتبره عاملاً من عوامل تكوينها، وكان ساطع الحضري أبرز من رسخ تلك الايديولوجيا القومية في كل من العراق وسورية بعد أن احتل مراكز تربوية وعلمية راقية فيهما.

وكانت نتيجة المعطيات السابقة جميعها أن القيادات القومية العربية جعلت الحضارة الغربية قدوتها ومثالها، وشرعت في تغريب الإنسان والمجتمع العربيين، فأحلت الرابطة القومية محل الرابطة الدينية، ونقلت التشريعات الغربية وقوانينها في كل مجالات الحياة التجارية والزراعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلخ... ولم تستثن من ذلك إلا قوانين محدودة تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق، ونقلت النموذج السياسي الغربي دون أدنى تغيير أو مراعاة لأية ظروف خاصة، ونسخت النظام الاقتصادي الغربي القائم على النظام الربوي بكل شروره وآثامه، ونشرت الآداب والفنون الغربية من مسرح وسينما وتمثيل ورسم ونحت إلخ... وقد أدى كل ذلك إلى

اصطراع عفيف بين النموذج الغربي وبين النموذج الحضاري التاريخي لأمتنا الذي عرفته لقرون طويلة.

أما مصر فقد كان صوت التغريب فيها بعد الحرب العالمية الأولى أعلى من صوته في مثيلاتها العربيات، فقد اعتبر حزب الوفد الذي قاد ثورة ١٩١٩م أن الشعب المصري أمة فرعونية مكتفية بذاتها، وقد دعا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي إثر استقلال مصر عام ١٩٣٦م في كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" إلى أخذ الحضارة الغربية كاملة في كل مجال: حلوها ومرها، واعتبر ذلك الطريق الوحيد للرقى ولالاتحاق بركب الحضارة البشرية، وقد شهدت مصر بين الحربين العالميتين معارك فكرية صاحبة كان القصد منها خلخلة البناء النفسي للشعب المصري وهيئته للتغريب الكامل من مثل المعركة التي أثارها علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" نافياً وجود حكم يتطلبه الإسلام، ومما يلحق بتلك المعارك الفكرية الصارخة الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية وإلى تغيير قواعد النحو والإملاء والحجة في كل ذلك التيسير.

ثم جاء جمال عبد الناصر إلى الحكم في عام ١٩٥٢م ونقل مصر من مرحلة القومية الفرعونية إلى القومية العربية، واعتمد في البداية طرح ساطع الحصري القومي العلماني، ثم انتقل عبد الناصر إلى المرحلة الاشتراكية في الستينات^(١)، وقد استمرت مصر ماضية في أمر التغريب ولكنّ تغريبها هذه المرة مستمد من الشق السوفييتي الاشتراكي، لذلك حكمت المجتمع التطبيقات الاشتراكية من مثل تأميم وسائل الإنتاج، وقيادة العمال والفلاحين، والصراع الطبقي، والعنف الثوري إلخ... ثم سارت عدة دول عربية على نهج مصر القومي الاشتراكي ومنها: السودان، والجزائر، اليمن، إلخ...

(١) عندما نحاً جمال عبد الناصر إلى الاشتراكية وجدنا أن المفردات الاشتراكية هي التي طغت، وأن النظريات الماركسية والشيوعية هي التي سادت الساحة، ووجدنا أن المقولات القومية تراجعت، ووجدنا حركة قوميين العرب ذات النشأة القومية العربية الصرفة تحوّلت إلى حركة تلتزم الايديولوجيا الماركسية بشكل عنيف، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على فقر مضمون القومية العربية، وضآلة محتواها الثقافي، لذلك أمكن تجاوزها بسهولة.

والسؤال الآن بعد هذا الاستعراض الموجز لمحاولات التغريب: ماذا كانت نتيجة محاولات القيادات القومية لتغريب بلادنا منذ الحرب العالمية الأولى؟ هل نجحت في ذلك؟ هل أصبحت قيم الغرب وعاداته وتقاليده ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية متحذرة في حياة الأمة وجزءاً من كيانها؟ لا لم تصبح بدليل الصحة الإسلامية التي قامت في مختلف أنحاء العالم العربي من تركيا إلى سورية إلى الأردن إلى مصر إلى تونس إلى الجزائر إلخ... والتي جاءت لتعلن فشل التيار القومي في تغريب الأمة، وقد استندت الصحة الإسلامية في تفشيها محاولة التغريب تلك إلى الوحدة الثقافية التي تمثلت في مفاهيم مستمدة من أحكام الحلال والحرام والواجب والمندوب المطروحة في كتب الشريعة الإسلامية، وظهرت في تقاليد وعادات وأعراف مستندة إلى سيرة الرسول ﷺ ، وبانت في سلوكيات معتمدة على قيم الإسلام وأخلاقه وتوجيهاته، وتجلت في أفكار مأخوذة من عقائد الإسلام ومبادئه، وقامت على أشواق وأذواق مرتبطة بحديث القرآن عن الجنة والنار إلخ...

وقد شكل القرآن الكريم والسنة المشرفة أساس الوحدة الثقافية لأمتنا، فهما قد أعطيا المسلمين تصوراً واحداً عن الكون والحياة والإنسان، ورسماً لهم أهدافاً واحدة تزوج بين التطلع إلى الآخرة وإعمار الدنيا، وحدداً لهم قيماً واحدة تقوم على التطهر والتركي، وأوجبا عليهم واجبات واحدة تعود على الفرد والمجتمع بالخير في الدنيا قبل الآخرة، وأفعما قلوبهم بتعظيم الله ورجائه وحبّه مما أورثهم غنى نفسياً وامتلاءً معنوياً تجسد في أوقاف بلغت ثلث ثروة العالم الإسلامي، ووجهها عقولهم إلى التفكير والتدبر والأخذ بالتحريب والابتعاد عن الأوهام والظنون مما جعلهم يبتكرون مخترعات تغني الحياة البشرية في مختلف العلوم والمجالات: كالفيزياء والكيمياء والميكانيكا والرياضيات والطب والفلك والصيدلة إلخ...

لقد شكلت الوحدة الثقافية التي استندت إليها الصحوة الإسلامية في إفشالها التغريب أبرز مظهر من مظاهر الأمة الواحدة في وقتنا الحاضر بعد أن نجح أعداء الأمة في تمزيق مظاهر الوحدة الأخرى: السياسي والاقتصادي منها، وقد تبين أن هذه الوحدة

الثقافية أقوى وأعصى على التدويب والتغيب والتفتيت مما يتصورون .

لقد جاءت الصحة الإسلامية تعبيراً عن رفض الأمة للتغريب من جهة، وقامت استناداً على الوحدة الثقافية للأمة من جهة ثانية .



والآن بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على بداية الصحة، فما الذي أُنجزته الصحة الإسلامية؟ ولماذا كانت محدودة الفاعلية والنتائج؟

محدودية فاعلية الصحوة الإسلامية

لقد شكلت الصحوة الإسلامية ظاهرة إيجابية في حياة الأمة الإسلامية، لأنها كانت من مظاهر الانتصار على التغريب الذي قاده الفكر القومي العربي^(١)، والذي مثل أكبر خطر واجه الأمة خلال القرنين السابقين، لكن هذه الصحوة لم تستطع أن تنقل الأمة نقلة نوعية في أية ساحة من الساحات المفتوحة، بل على العكس أنتجت خسائر فادحة في بعض الساحات التي كان

(١) التقى بعض الإسلاميين مع القيادات القومية العربية في مؤتمر ستموه "المؤتمر القومي الإسلامي"، بدأ أول دورة له عام ١٩٩٤م، واستمر في عقد دورة له كل عام، واختاروا له أميناً عاماً ولجنة تنفيذية، ولم يكن القصد من هذا المؤتمر سياسياً بل كان حضارياً بمعنى إنشاء نواة لقاء بين التيارين القومي والإسلامي تؤدي إلى تغيير جذري في كيان الأمة وهضمة جديدة، فلا أدري كيف يتوقع الإسلاميون أي دور لايديولوجيا القومية العربية في بناء هضمة جديدة وهي لم تراجع عن مقولتها القديمة بنفي أي دور أساسي للإسلام في بناء الأمة؟ فأية هضمة جديدة مع تلك المقولة القديمة؟

الواجب الانتصار فيها وأبرزها الساحة الأفغانية، حيث كان الإسلاميون هم الطرف الفاعل فيها وليست معهم أية فصائل أخرى كالقوميين والاشتراكيين والعلمانيين إلخ...، وحيث توافر لها الدعم من كل العالم الإسلامي، فشارك مقاتلون مع المجاهدين الأفغان من كل الجنسيات الإسلامية من مصريين، وفلسطينيين، وجزائريين، وتونسيين، وفلبينيين إلخ... كما لم ينقصها مال ولا سلاح، كما توفر لها دعم إعلامي لم تحظ به أية ساحة أخرى. ومع ذلك كانت النتيجة سيئة، فلم يستفد المسلمون شيئاً من تلك الساحة، وذهبت كل التوظيفات المالية والجهادية والإعلامية دون جدوى، وعلى العكس أصبح الجهاد الأفغاني مثلاً سيئاً على اضطراب العمل الإسلامي وفشله في تحقيق آماله وأهدافه^(١)،

(١) إن وضع القبول الذي تلقاه الجماعات الإسلامية والعلماء المسلمون ناتج من رصيد الدين الوافي عند عموم المسلمين، لذلك فإن فشلهم في نقل الأمة من وضع إلى وضع أفضل، لا يجعلهم يخسرون جهودهم فقط، بل تكون الخسارة على حساب الأمة، وتكون المحصلة هي تراجع وضع الأمة بشكل عام من جهة، ونقصان رصيد الخير والقوة الذي بناه

←

والآن ما السبب في أن الصحوة لم تستطع أن تنقل الأمة نقلة نوعية؟ وما السبب في أنها لم تستطع أن تحقق انتصاراً في أية ساحة من الساحات بوعي الأمة؟ السبب في ذلك عدة أمور هي:

الأول: عدم دراسة التجارب الإسلامية المعاصرة وعدم تقويمها:

واجهت الأمة الإسلامية خلال المائتي سنة أعداء شرسين حاولوا تمزيق وحدتها، وطمس هويتها، ونهب اقتصادها، وتغريب مجتمعاتها، والتشكيك في ثوابت وجودها إلخ... وقد تصدى لهؤلاء الأعداء علماء مخلصون، قادوا جمعاً كثيرة من أبناء الأمة في معركة المواجهة، ونجحوا في جوانب من المعركة وفشلوا في بعضها الآخر، لكننا بكل أسف لا نجد رصداً لكل هذه المعارك والجهود، وإن وجدنا

السابقون من جهة ثانية، واستقواء العدو ومحاولة استغلاله للفشل في محالة تمكين وضعه من جهة ثالثة.

فإننا لا نعثر على تقويم دقيق وعميق لكل هذه المعارك والجهود من أجل معرفة أخطاء العلماء والجماعات وتجنبها، ومعرفة إصابتهم والبناء عليها.

ويمكن أن نمثل على ذلك بالجماعة الإسلامية^(١) التي أنشأها أبو الأعلى المودودي في باكستان والتي امتد عملها ثلاثة أرباع القرن الماضي، ولو قمنا بإحصاء الكتب التي تناولت تلك الجماعة، وأنشطتها، وأفكارها، ومواقفها، لوجدنا ذلك محدوداً لا يتجاوز عدد أصابع اليد، وقس على ذلك بقية الجماعات والأحزاب كالأخوان المسلمين، وحزب التحرير، وجماعة التبليغ، وجماعة النور في تركيا إلخ... وكذلك نجد أن الصحة الإسلامية لم تقم بدراسات وافية حول الشخصيات الإسلامية والعلماء المسلمين، وكذلك لم تقم بنقد الكتب الإسلامية للتمييز بين

(١) ألقت كتاباً تحت عنوان "أبو الأعلى المودودي: فكره منهجه في التغيير، دراسة وتقويم" صدر عام ١٩٩٦م، اجتهدت فيها أن أساهم في سد هذه الثغرة.

الغث والسمين، ومن أجل توجيه الأمة إلى الطريق الأقوم،
والسبيل الأسلم في كل مجال.

الثاني: القصور في وعي تطورات الحضارة الغربية:

مازالت الحضارة الغربية تمثل التحدي الأكبر لأمتنا كما
كانت على مدار القرنين الماضيين، ويقتضي ذلك وعي أسسها
التي قامت عليها وعياً تفصيلياً، ووعي تطوراتها، أما وعي أسسها
فقد حقق علماؤنا جانباً كبيراً من هذا في مطلع القرن الماضي،
ولكن الصحوة الإسلامية مطالبة بوعي تطوراتها العلمية
والتكنولوجية والاقتصادية والسياسية إلخ...، والاستفادة من
إنجازاتها لتسديد مسيرة الأمة في مجال الإدارة والاقتصاد
والاجتماع والسياسة إلخ...، ومما يصعب القيام بهذه المهمة
حجم المعلومات التي تطرحها الحضارة الغربية، والتي تتضاعف
بشكل مذهل بسبب تقنيات الكمبيوتر المتقدمة، ولكننا نجد بكل
أسف أن الصحوة الإسلامية لم تقدم إنجازات حقيقية في مجال
تطورات الحضارة الغربية، بل مازال ينقصها الكثير.

الثالث: عدم رسم خطة للاستفادة من التراث الإسلامي:

تملك تراثاً غنياً في كل المجالات وهو واسع في بعضها ومحدود في بعضها الآخر، فهو واسع في مجالات الفقه وعلم الأصول وعلوم الحديث وعلوم القرآن وعلوم اللغة العربية إلخ... وهو محدود في مجال الدراسات الاقتصادية والسياسية وتعليل التاريخ وفلسفة العلوم إلخ... لذلك فالمطلوب من الصحة الإسلامية التخطيط لكل قطاع على حدة، فالتراث الواسع لا يحتاج إلى مزيد من بذل الجهود العلمية فيه، بل علينا تقنين خطوات الاستفادة منه. وأما التراث المحدود فعلى العلماء بذل جهود علمية في إغنائه وتوسيعه وتطويره على ضوء العلوم والمعارف التي اكتشفتها البشرية في القرون الأخيرة. ولكننا بكل أسف نرى أن جهود كثير من أبناء الصحة تذهب إلى القطاع الواسع الذي ربما كانت سعته مصدر مشاكل للمسلمين المعاصرين، وترك القطاع المحدود مع أنه بحاجة إلى إبداع وتفكير وتوسيع، ويمكن أن تمثل على ذلك بكثرة الدراسات الفقهية، وقلة الدراسات التي تناولت كتب السياسة الشرعية والحسبة

والاقتصاد الإسلامي وعوامل قيام الدول وسقوطها من أجل استخلاص النظريات الشرعية في مجالات الاقتصاد الإسلامي، والحكم الإسلامي، والسياسة الإسلامية، وحركة المجتمع الإسلامي إلخ... والتي تساعد الصحوة في الرد على أعداء الدين الإسلامي من جهة، وبناء خطواتها القادمة من جهة ثانية.

الرابع: التقصير في إيجاد أوقاف واسعة:

شغلت الأوقاف الإسلامية ثلث ثروة العالم الإسلامي في القرون الماضية، ولعبت دوراً واسعاً في حياة الأمة الإسلامية في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والصحية والعسكرية إلخ... لذلك يجب على الصحوة الإسلامية أن تستفيد من هذا الماضي المشرق وتخطط لإيجاد أوقاف واسعة وغنية تساعد على تدعيم الجوانب العلمية والصحية والاجتماعية في حياة أمتنا، لكنها بكل أسف لم تقم بشيء حقيقي في هذا المجال.

الخامس: القصور في تعميق فهم الإسلام عند جماهير الأمة :

لقد كان من أبرز واجبات الصحة الإسلامية أن تتجه إلى تعميق وعي المسلمين بالإسلام، والارتقاء بتفكيرهم، وتطوير محاكمتهم العقلية، وتوسيع أفقهم، وزيادة معلوماتهم، وتعريفهم بأهم المشاكل التي تواجههم، وكيفية حلها إلخ... لكننا نجد أن الصحة الإسلامية قصّرت في هذا المجال تقصيراً كبيراً، فانتشر الحديث عن السحر وأنواع الجن وطرق التعامل معهم إلخ... واختلط الباطل والشعوذة والأوهام بالحقيقة الدينية والعقلية في هذا المجال، كما انتشر الحديث عن المرأة وزينتها بشكل مفرط ومخز مع تجاهل كبير للأخطار المحدقة بالأمة إلخ...، كما انتشر الحديث عن الرؤى والأحلام والمنامات والكرامات إلخ...، لذلك فإن الصحة مرت دون تطوير حقيقي لأفهام المسلمين، ودون تحسين نوعي لمعلوماتهم عن الإسلام، ودون توريثهم آلية سليمة في محاكمة الأمور.

السادس: القصور في تعميق الوعي السياسي جماهير الأمة:

لقد كان من أبرز واجبات الصحة تعميق الوعي السياسي للمسلمين في عدة مجالات، منها: فهم استراتيجيات الدول الكبرى، وكيفية اتخاذ القرار فيها، والأولويات التي تحكم اتخاذ قرارها، كما كان من واجباتها إعطاء صورة دقيقة لوضع الأمة السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي إلخ...، وتحديد أهم الأخطار التي تهدد هذا الوضع، كما كان من واجباتها تحديد الأمراض التي أصابت الأمة، ونقاط ضعفها وقوتها إلخ...، وكذلك مما يجب على الصحة الإسلامية ألا يقتصر نظرها وموقفها وتقويمها لشؤون العالم الإسلامي على اعتماد الجوانب الشرعية فحسب بل يجب أن يتم النظر والموقف والتقويم من خلال عاملين: الجوانب الشرعية من جهة، ومصصلحة الأمة من جهة ثانية، وتشمل مصلحة الأمة: اقتصادها، ووحدها، وقوتها، وسيادتها، وثقافتها إلخ...

السابع: القصور في حل مشكلة العمل الجماعي:

هناك ظاهرة ملفتة للنظر في العمل الإسلامي المعاصر هي أن الجماعات التي حملت لواء الإسلام في إطار أهل السنة بقيت محدودة الجماهير، تعاني من قلة تفاعل المسلمين معها، وقلة المقبلين عليها، والمندرجين تحت لوائها، وإن وجدت عكس ذلك في إحدى الفترات فأقبلت الجماهير عليها، فقد حدث لفترة مؤقتة ولأسباب غير شرعية من مثل الإحساس بأزمة اقتصادية معينة أو التفاعل مع قضية وطنية، فتأتي هذه الجماهير وتجتمع مع الجماعات الإسلامية على صعيد واحد ثم تنحسر عنها بعد حين قصير عندما تنتهي الشحنة العاطفية الدافعة إلى هذا الانفعال، والسؤال الآن: لماذا لا يرتبط هؤلاء المسلمون ارتباطاً دائماً بهذه الجماعات؟ ولماذا ينحسرون بهذه السرعة؟

لقد جاء عدم ارتباط المسلمين الدائم بتلك الجماعات نتيجة إشكالية يعانيها أهل السنة إلى الآن: وهي شرعية

ارتباط المسلم بالجماعة الإسلامية، هل هو فرض؟ أم مندوب؟
 أم متروك لظروف المسلم وأهوائه؟ أم بحسب مصالح ومفاسد
 معينة؟ أم حرام؟^(١) إلخ...

ربما كان الاضطراب ناتجاً من أن أهل السنة يواجهون
 لأول مرة في تاريخهم انقراط جماعة المسلمين التي كانوا
 ينتمون إليها، ويرتبطون بإمامها الذي هو الخليفة، وأن الفقه
 الإسلامي حرّم أي خروج على جماعة المسلمين، وحرّم
 تشكيل أية جماعة أخرى تؤدي إلى تمزيق جماعة المسلمين.

ويمكن أن ندرك حجم هذه الإشكالية عند أهل السنة
 إذا نظرنا إلى تجمعات الطوائف الأخرى في عالمنا العربي

(١) درست ظاهرة القصور في العمل الجماعي عند المسلم المعاصر في
 كتاب لي تحت عنوان: "الجماعة في الإسلام: المشروعية والإطار" صدر
 في عام ١٩٩٥م، يمكن أن يعود إليه من شاء التفصيل في معرفة أسباب
 هذه الظاهرة، والحلول المقترحة لها.

والإسلامي، ودققنا في هياكلها التنظيمية، ودورها في تسيير شؤون الطوائف، وتحقيق مكاسبها.

تحدثنا فيما سبق عن محدودية فاعلية الصحة الإسلامية، والأسباب التي كانت وراء هذه المحدودية، وليس من شك بأن القيادات الإسلامية أضاعت فرصة ثمينة كان بإمكانها أن تنقل الأمة من خلالها إلى آفاق أخرى.



تكلّمنا في الفصل السابق عن الصحة الإسلامية، وبيّنا مظاهرها، وأسباب قيامها، ووضحنا العوامل التي أدت على محدودية فاعليتها، وسنستعرض في الفصل القادم أهم الأخطار التي تهدّدها بشكل خاص، وتهدّد الأمة بشكل عام.